

الرُّمُوزُ السِّيَاسِيَّةُ: بَيْنَ إِشْهَارِ الْإِنْتِمَاءِ وَتَثْبِيتِ السَّطْوَةِ «الضَّاحِيَّة» نَمُودَجًا

نجيب العطار



تمثال قاسم سليمان على طريق المطار، روتبرز

بل كقاضٍ أيضًا. إضافةً إلى نزعته تقديس «الأنا» و«الآخر» التي لا يمكن لأي تنظيم عقائدي إلا أن يقع فيها. والواقع أن حزب الله لم يفرض هويته على جمهوره وحسب، بل أيضًا على جمهور حركة أمل نفسها، إذ أن الحركة ليست تنظيمًا عقائديًا بالمعنى الذي عليه حزب الله، وبالتالي لا تستطيع أمل أن تشكل هذه الثنائية مع حزب الله دون أن تتعاطى مع الشيعة بالأدوات نفسها التي يتعاطى بها حزب الله.



صور نصر الله على الدمار، الشرق الأوسط

الرُّمُوزُ فِي أَمَاكِنِهَا: هَيْمَنَةُ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ

يتم نشر الرُّمُوزِ فِي «الضَّاحِيَّة» دُونَ اعْتِبَارِ طَبِيعَةِ الْمَكَانِ الَّذِي تُنَشَرُ عَلَيْهِ، لَا مَعْنَى لِأَنَّ يَكُونُ الْمَكَانُ مُلْكًا عَامًّا أَوْ خَاصًّا. وَبِئْسَ مِنَ الْمَبَالِغَةِ فِي شَيْءٍ لَوْ قِيلَ أَنَّ تَعْلِيقَ صُورَةٍ مِثْلًا، أَوْ أَيِّ رَمَزٍ آخَرَ، عَلَى الْأَمْلاكَ الْعَامَّةِ أَسْهَلُ بِكَثِيرٍ مِنْ تَعْلِيقِهَا عَلَى أَمْلاكَ خَاصَّةٍ فَدَ يَتَطَلَّبُ ذَلِكَ إِذْنًا مِنَ الْمَالِكِ. يَذَكِّرُ أَحَدُ أَصْدِقَائِي أَنَّ بَعْضَ الْمُؤَيَّدِينَ لِحَرَكَةِ أَمَلٍ أَرَادُوا، مَرَّةً، تَعْلِيقَ عَلَمَيْنِ لِلْحَرَكَةِ عَلَى شُرْفَةِ مَنْزِلِهِ ضَمَنَ «مَشْرُوعٍ» لِتَعْلِيقِ الْأَعْلَامِ عَلَى شُرْفَاتِ الطَّابِقِ الْأَوَّلِ مِنَ الشَّارِعِ الَّذِي يَسْكُنُ فِيهِ. طَلَبَ هَؤُلَاءِ مِنْهُ إِذْنًا قَبْلَ أَنْ يُعْلَقُوا الْعَلَمَيْنِ، فِي حِينِ أَنْ تَعْلِيقَهُمَا، وَتَعْلِيقَ غَيْرِهِمَا، عَلَى عَمُودِ كَهْرَبَاءٍ، أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَمْلاكَ الْعَامَّةِ، يَتِمُّ دُونَ الْحَاجَةِ لِأَيِّ إِذْنٍ. إِنَّ هَذِهِ الْحَالَةَ مِنَ الْأَمْعَاءِ وَالتَّمَاهِي بَيْنَ الْعَامِّ وَالْخَاصِّ لَا يَعْنِي سِوَى أَنَّ الْخَاصَّ يُهَيِّمُ عَلَى الْعَامِّ فِي هَذِهِ الْجُغْرَافِيَا. فَالْخَاصُّ، كَعَلَمِ حِزْبٍ مَا، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَصْبِرَ عَامًّا، وَالْعَكْسُ صَاحِبٌ فِي حِينِ يَعْتَبَرُ الدُّكْتُورُ فَرَجُ أَنَّ «لَا وَجُودَ لِلْعَامِّ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ. فَالْهَيْمَنَةُ تَكُونُ عَلَى الْجُغْرَافِيَا وَعَلَى كُلِّ مَا فِيهَا. وَالدُّوْلَةُ بِالنِّسْبَةِ لَهُمْ عَدُوٌّ. [الضَّاحِيَّة] مَنطِقَةٌ جُغْرَافِيَّةٌ خَاصَّةٌ، وَدُخُولُ الدُّوْلَةِ إِلَيْهَا

شَرُّ مُطْلَقٍ» الَّتِي قَالَهَا مُوسَى الصِّدْرُ، وَ«إِسْرَائِيلُ غَدَةٌ سِرْطَانِيَّةٌ يَجِبُ اسْتِثْمَالُهَا» لِلخَمِينِي. إِضَافَةً إِلَى يَافِطَاتٍ تَحْمَلُ عِبَارَةَ «طَرِيقَ الْقُدْسِ»، أَوْ مَا يَعَادِلُهَا. حَتَّى الْمَحَالِ التَّجَارِيَّةُ تَحْمَلُ فِي أَسْمَائِهَا أَبْعَادًا رَمَزِيَّةً ثَقَافِيَّةً كَمَا فِي «فَرُوجِ الْهَادِي» مِثْلًا، وَأَبْعَادًا سِيَاسِيَّةً كَمَا فِي «مَقْهَى السَّيِّدِ» الَّذِي دُمِّرَ فِي الْغَارَةِ الْأَوَّلَى بَعْدَ وَقْفِ إِطْلَاقِ النَّارِ عَلَى شَارِعِ الْجَامُوسِ بِتَارِيخِ ٢٨ آذَارِ.

لَا يَوجِدُ مَكَانٌ مُحَدَّدٌ تُعْلَقُ هَذِهِ الرُّمُوزُ عَلَيْهِ؛ لَا مَكَانٌ مُخَصَّصًا لِهَذَا الْأَمْرِ، إِنَّمَا الْمَكَانُ، كُلُّ الْمَكَانِ، يَصْلُحُ لِذَلِكَ. الْكِتَابَةُ عَلَى الْجُدْرَانِ؛ تَعْلِيقُ الصُّورِ وَالْأَعْلَامِ عَلَى الْأَمْلاكَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ: عَوَامِيدُ الْكَهْرَبَاءِ، الْجُدْرَانِ، تَحْتِ الْجَسُورِ، أَمَامَ الْمَسَاجِدِ وَالْحَسِينِيَّاتِ، عَلَى الشُّرْفَاتِ، عَلَى الْبِنَايَاتِ، عَلَى السَّيَّارَاتِ، عَلَى قَوَاعِدِ مُخَصَّصَةً لِحَمَلِ الرُّمُوزِ تَوْضَعُ عِنْدَ دَوَارٍ مَا أَوْ مُفْتَرِقٍ طَرِيقٍ، عَلَى الْفَاصِلِ بَيْنَ الطَّرِيقِ إِنْ وَجِدَ الْفَاصِلُ طَبْعًا. بِعِبَارَةٍ مُخْتَصِرَةٍ: كُلُّ مَكَانٍ يَصْلُحُ لِأَنَّ تُعْلَقُ عَلَيْهِ صُورَةٌ أَوْ عَلَمًا.

بَعْدَ تَوَقُّفِ الْحَرْبِ فِي ٢٧ تَشْرِينِ الثَّانِي ٢٠٢٤، تَضَاعَفَ عَدَدُ صُورِ «الشُّهَدَاءِ» أَضْعَافًا كَثِيرَةً طَعَتْ عَلَى مَا تَبَقِيَ مِنَ الرُّمُوزِ الَّتِي لَمْ تَدْمُرْهَا الْحَرْبُ. وَبِمَكِّنٍ لِمَنْ يَسِيرُ فِي شَوَارِعِ «الضَّاحِيَّة» أَنْ يَشْعَرَ بِحَجْمِ الْكَارِثَةِ الَّتِي نَزَلَتْ بِأَهْلِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ، فَقَطَّ مِنْ أَعْدَادِ صُورِ «الشُّهَدَاءِ».

رَمُوزُ «الضَّاحِيَّة» فِي دَلَالَتِهَا: الدُّنْيَا لَا تَتَسَخَّرُ لِلْهَيْبَةِ!

الْحَالَةُ الرَّمَزِيَّةُ حَالَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ، أَيْ أَنَّ وَجُودَهَا وَتَطَوُّرَهَا يَتَعَلَّقَانِ بِالنَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ وَالتَّوَاصُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ بَيْنَ النَّاسِ. وَهَذَا مَا أَكَّدَهُ لَنَا الدُّكْتُورُ فِي عِلْمِ النَّفْسِ، دَاوُدُ فَرَجُ، الَّذِي يُضَيِّفُ أَنَّ «الرُّمُوزَ نَعَكْسُ الْهَوِيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ لِلْأَفْرَادِ، وَوَجُودُهَا دَلِيلٌ عَلَى التَّوَاصُلِ. بَيِّنٌ أَنَّ كَثْرَةَ الرُّمُوزِ وَأَحَادِيثِهَا تُعْبِرَانِ عَنِ حَالَةِ الْهَيْمَنَةِ وَالسَّطْوَةِ؛ هِيَ إِعْلَانٌ لِحَالَةِ السَّيْطَرَةِ، وَتَلْعَبُ دَوْرًا مَهْمًا فِي تَحْدِيدِ الْمَجَالِ الْحَيَوِيِّ لِلْجَمَاعَةِ ضَمَنَ هَذِهِ الْجُغْرَافِيَا. الضَّاحِيَّةُ تَعْبِرُ عَنِ بَيْئَةِ اجْتِمَاعِيَّةٍ لَهَا انْتِمَاءٌ مُعَيَّنٌ، وَهِيَ تَضَعُ الرُّمُوزَ عَلَى حُدُودِهَا لِإِشْهَارِ هَذَا الْإِنْتِمَاءِ، لَكِنِ الْإِكْتِسَادُ مِنْ هَذِهِ الرُّمُوزِ هُوَ شَكْلٌ مِنْ أَشْكَالِ الْإِغْيَاءِ الرُّمُوزِ الْآخَرَى». مِنْ هُنَا، إِنَّ أَحَادِيثَ الرُّمُوزِ فِي «الضَّاحِيَّة» لَيْسَتْ إِلَّا انْعِكَاسًا لِوَقَائِعِ السَّيْطَرَةِ وَالْهَيْمَنَةِ، وَتَحْمَلُ دَلَالَةً عَلَى أَنَّهُ لَا مَكَانَ لِرَمَزٍ مِنْ خَارِجِ هَذَا الْإِنْتِمَاءِ، وَبِمَكِّنٍ لِلْقَائِلِ أَنَّ يَتَخَيَّلَ مَا قَدْ حَدِثَ لِقَرْدٍ يُحَاوِلُ أَنْ يَضَعُ، فِي «الضَّاحِيَّة»، رَمَزًا مِنْ رَمُوزِ «خَصُومِ» الْحَزْبَيْنِ الشَّيْعِيِّينَ. وَالحَالُ عِنْدَ الْخَصُومِ لَا يَخْتَلِفُ فِي جَوْهَرِهِ، إِذْ أَنَّ هَذَا الْإِقْصَاءَ هُوَ حَالَةٌ مُتَبَادِلَةٌ بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ. وَالنَّاسُ تُدْرِكُ هَذَا جَيِّدًا، وَتَتَصَرَّفُ عَلَى أُسَاسِهِ. أَذْكَرُ، خِلَالَ الْحَرْبِ الْآخِرَةِ، أَنَّ نِقَاشًا أُثِيرَ عَنِ أَحَدِ «الشَّيْعَةِ» الْمُهْجَرِينَ إِلَى إِحْدَى الْمَنَاطِقِ «الْمَسِيحِيَّةِ» وَالَّذِي تَجَوَّلَ بِسَيَّارَتِهِ فِي تِلْكَ الْمَنطِقَةِ وَهُوَ يُشْعَلُ اللَّطْمِيَّاتِ، بِرَمَزِيَّتِهَا، بِصَوْتٍ عَالٍ نَسْبِيًّا. كَانَ رَفُضٌ هَذَا الْفِعْلِ مَوْقِفٌ جَمِيعِ الْحَاضِرِينَ، وَمِنْ ضَمْنِهِمْ بَعْضُ «الْمُتَفَرِّغِينَ» فِي حِزْبِ اللَّهِ، وَحُجَّةُ الرَّفُضِ كَانَتْ أَنَّهُ «لَيْسَتْ مَنطِقَتَهُ».

إِنَّ هَذَا الْإِقْصَاءَ لِلْآخَرِ، عَبْرَ إِقْصَاءِ رَمُوزِهِ، لَيْسَ حَالَةً سَلِيمَةً يَقْدَرُ مَا أَنَّهُ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ وَنَتِيجَةٌ مَنطِقِيَّةٌ لِأَمْرَيْنِ: الْأَوَّلُ هُوَ طَبِيعَةُ الرُّمُوزِ نَفْسِهَا، وَالثَّانِي هُوَ الْفِكْرُ الَّذِي يُنْتِجُ هَذِهِ الرُّمُوزَ الَّتِي تُعْبِرُ، بِدَوْرِهَا، عَنْهُ. فَالرُّمُوزُ تَرْتَبِطُ بِالْهَوِيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ لِلْجَمَاعَةِ الَّتِي «تُلْعَبُ» التَّمَايِزَ الْفَرْدِيَّ دَاخِلَهَا وَمَوْقِفَ الْفَرْدِ مِنْهَا وَاحِدًا مِنْ اثْنَيْنِ: إِذَا أَنْ يَأْخُذَهَا كُلُّهَا وَإِنَّمَا أَنْ يَتْرَكَهَا كُلُّهَا». بِحَسَبِ مَا ذَكَرَهُ الدُّكْتُورُ وَجِهَ قَانِصُو فِي نَدْوَتِهِ بِعُنْوَانِ «الشَّيْعَةُ بَيْنَ الْهَوِيَّةِ وَالدُّوْلَةِ» الَّتِي قَدَّمَهَا فِي مَكْتَبِ مَوْقِعِ «جَنُوبِيَّة» الْإِلِكْتُرُونِي. وَذَكَرَ قَانِصُو أَنَّ الْهَوِيَّةَ بِطَبِيعَتِهَا «تُرَكِّزُ عَلَى الدَّاتِي [فِيهَا] وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقْدَّمَ مَا يَجْمَعُهَا مَعَ الْآخَرِينَ، وَبِالتَّالِي إِذَا عِلَاقَتُهَا مَعَ غَيْرِهَا هِيَ عِلَاقَةٌ نَفْسِيَّةٌ». وَيُضَيِّفُ قَانِصُو أَنَّ حِزْبَ اللَّهِ عَمِدَ إِلَى «تَجْمِيدِ الدِّيْنَامِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي الْحَيَاةِ السِّيَاسِيَّةِ لِلشَّيْعَةِ قَبْلَ هَيْمَنَةِ الْحِزْبِ عَلَيْهَا». وَالأَمْرُ الثَّانِي أَنَّ الْهَوِيَّةَ الشَّيْعِيَّةَ الَّتِي يَحْمِلُهَا جَمْهُورُ الثَّنَائِي الشَّيْعِيِّ، وَحِزْبِ اللَّهِ عَلَى وَجْهِ الْخَصُوصِ، هِيَ هَوِيَّةٌ عَقَائِدِيَّةٌ وَهِيَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ قَانِصُو أَيْضًا فِي نَدْوَتِهِ، إِذْ اعْتَبَرَ أَنَّ حِزْبَ اللَّهِ غَيَّرَ طَبِيعَةَ الْهَوِيَّةِ الشَّيْعِيَّةِ مِنْ هَوِيَّةٍ ثَقَافِيَّةٍ إِلَى هَوِيَّةٍ دِينِيَّةٍ. وَمِنْ طَبِيعَةِ الْهَوِيَّاتِ، الَّتِي تُؤَسِّسُ عَلَى قَاعِدَةٍ عَقَائِدِيَّةٍ، أَنْ تَتَعَاطَى مَعَ الْآخَرِ لَيْسَ مِنْ مَوْقِعِ الْإِقْصَاءِ وَحَسَبِ، بَلْ مِنْ مَوْقِعِ الْمُحَاكِمَةِ. فَهِيَ لَا تَتَصَرَّفُ كَمُحَامٍ وَحَسَبِ،

تَرْتَبِطُ الْإِنْسَانُ بِ«الرَّمَزِ» عِلَاقَةً مُعَقَّدَةً يَدُو أَنْ لَهَا مِنَ الْعُمُرِ مِثْلَ مَا لِلْإِنْسَانِ مِنْهُ. يُمَكِّنُ تَعْرِيفَ الرَّمَزِ بِأَنَّهُ شَيْءٌ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى أَيْعَدُ مِنْهُ. وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الشَّيْءُ إِشَارَةً، لُغَةً، رَسْمًا، صُورَةً، رَايَةً، آلَةً، إِنْسَانًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يُعَدُّ مِنَ الرُّمُوزِ الَّتِي تُصَنَّفُ تَصَنِيفَاتٍ مُتَعَدِّدَةً بِاعْتِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ. وَإِحْدَى أَهَمِّ خِصَائِصِ الرَّمَزِ وَمُقَدِّمَاتِ فَهْمِ دَلَالَتِهِ، هِيَ أَنَّهُ، مِنْ حَيْثُ الْمَبْدَأُ، لَيْسَ ذَا طَبِيعَةٍ شَمُولِيَّةٍ عَالَمِيَّةٍ، بَلْ هُوَ حَالَةٌ تَخُصُّ جَمَاعَةً مُحَدَّدَةً وَتَرْتَبِطُ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِثَقَافَةِ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ وَهَوِيَّاتِهَا. مِنْ هُنَا، يَحْمَلُ الرَّمَزُ، بِطَبِيعَتِهِ، نَزْعَةً نَحْوَ الْحَصْرِ وَالْإِخْتِرَالِ.

فِي السِّيَاسَةِ، يُشَكِّلُ الرَّمَزُ حَالَةً ضَرُورِيَّةً لَا يُدَّ مِنْهَا، بَلْ إِنَّهُ يَتَحَوَّلُ إِلَى أَدَاةٍ لِعَلَّهَا أَهَمُّ أَدَوَاتِ الْعَمَلِ السِّيَاسِيِّ. وَتُعَدُّ الصُّورُ إِحْدَى أَكْثَرِ الرُّمُوزِ انْتِشَارًا فِي مِيدَانِ السِّيَاسَةِ الَّذِي يُؤَثِّرُ عَلَى سِوَاهِ مِنْ مِيَادِينِ الْحَيَاةِ. وَيَعْتَبَرُ رُولَانْدُ بَلِيكِرُ أَنَّ «الْهَيْمَنَةَ الْبَصْرِيَّةَ» لِلصُّورِ هِيَ شَأْنٌ سِيَاسِيٌّ يُؤَثِّرُ فِي تَفَاعُلِ الْمُتَلَقِّي لَهُ مَعَ الْعَالَمِ وَفِيهِ^(١) وَفِي الْبُلْدَانِ الَّتِي لَمْ تُنْجِزْ هَوِيَّتَهَا الْوِطَنِيَّةَ بَعْدَ، كَلْبَنَانِ مِثْلًا، يَتَحَوَّلُ الرَّمَزُ إِلَى وَسِيلَةٍ لِتَحْدِيدِ الْإِقْلِيمِ أَوْ الْمَجَالِ الْحَيَوِيِّ لِهَذِهِ الْجَمَاعَةِ أَوْ تِلْكَ. وَتَحْدِيدِ الْإِقْلِيمِ هُوَ سَلُوكٌ غَرَزِيٌّ تَمَارَسُهُ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ، وَالدُّكُورُ عَلَى وَجْهِ الْخَصُوصِ، عَبْرَ رَسْمِ حُدُودِهَا بِإِفْرَازَاتٍ كِيمِيَائِيَّةٍ كَالْبَوْلِ أَوْ الْفِيرُومُونَاتِ (pheromones).

فِي لُبْنَانِ، ذِي الْهَوِيَّاتِ الْمُتَصَارِعَةِ، تَنْتَشِرُ الرُّمُوزُ بِأَشْكَالِهَا الْمُخْتَلِفَةِ فِي مَعْظَمِ مَنَاطِقِهِ، لَكِنِ يَنْسَبُ تَتَفَاوُتٌ بَيْنَ مَنطِقَةٍ وَأُخْرَى. وَلَعَلَّ الضَّاحِيَّةَ الْجَنُوبِيَّةَ لِبَيْرُوتِ هِيَ أَكْثَرُ مَنَاطِقِ لُبْنَانِ مِنْ حَيْثُ كَثَافَةُ الرُّمُوزِ فِيهَا إِلَى حَدِّ تَصَحُّ فِيهِ تَسْمِيَّتُهَا بِ«قَرِيَّةٍ»^(٢) الرُّمُوزِ الْكَبِيرِ، وَتَصْلُحُ بِالتَّالِي لِأَنَّ تَوْخَذَ نَمُودَجًا لِتَحْلِيلِ الرُّمُوزِ فِي السِّيَاسَةِ دَلَالِيًا وَوُظُفِيًّا.

«الضَّاحِيَّة» فِي رَمُوزِهَا: تَعَدِّيَّةُ الرُّمُوزِ وَأَحَادِيثُ الْمَعْنَى

خَرَجْتُ، يَوْمًا، مَعَ صَدِيقٍ لِبَعْضِ الشُّوُونَ خَارِجَ حُدُودِ «الضَّاحِيَّة»، حَيْثُ اسْكُنُ. عِنْدَ عَوْدَتِنَا، سَلَّكَ صَدِيقِي بِسَيَّارَتِهِ الطَّرِيقَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَى «الضَّاحِيَّة» مِنْ نَاحِيَةِ الشُّوُونَ. وَرَغْمَ ثِقَتِي بِمَعْرِفَةِ صَدِيقِي بِطَرِيقَاتِ «الضَّاحِيَّة» وَزَوَارِيهَا، كُنْتُ أَشْعَرُ بِمَا يَشْعُرُ بِهِ مَنْ أَضَاعَ الطَّرِيقَ، وَلَمْ أَنْخَلُصْ مِنْ شَعُورِ الضَّيَاعِ هَذَا إِلَّا حِينَ رَأَيْتُ أَوَّلَ صُورَةٍ لِلْأَمِينِ الْعَامِّ الْأَسْبِقِ لِحِزْبِ اللَّهِ، حَسَنَ نَصَرَ اللَّهِ. فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ فَقَطْ أَدْرَكْتُ أَنِّي صِرْتُ فِي «الضَّاحِيَّة»، أَوْ فِي مَكَانٍ لَنْ أَضَيِّعَ طَرِيقَ بَيْتِي حِينَ يَنْزِلُنِي صَدِيقِي مِنْ سَيَّارَتِهِ فِيهِ.

قَبْلَ الْحَرْبِ الْآخِرَةِ، كَانَتْ «الضَّاحِيَّة» تَعْبُصُ بِالرُّمُوزِ الْمُتَعَدِّدَةِ. كَانِ يَكْفِي أَنْ تَقِفَ فِي مَكَانٍ مَا وَتَدُورَ فِيهِ دَوْرَةٌ كَامِلَةٌ حَوْلَ نَفْسِكَ لِتُدْرِكَ أَنَّ الرُّمُوزَ تَمَلُّ كُلَّ الْمَكَانِ، وَفِي كُلِّ الْأَتْجَاهَاتِ الْفِيْزِيَائِيَّةِ، لَكِنِ فِي أَتْجَاهِ سِيَاسِيٍّ وَثَقَافِيٍّ وَاحِدٍ؛ أَتْجَاهِ «الثَّنَائِي الشَّيْعِيِّ»-أَمَلِ-حِزْبِ اللَّهِ. يُمَكِّنُ أَنْ نَعُدَّ مِنْ هَذِهِ الرُّمُوزِ مَا يَلِي:

عَلَى مَسْتَوَى الصُّورِ: الْحِصَّةُ الْكَبِيرُ هِيَ لِمُوسَى الصِّدْرِ، حَسَنَ نَصَرَ اللَّهِ، نَبِيهِ بَرْزِي، الْخَمِينِي وَالْخَامْنِي. يَلِيهِمْ صُورُ الْقِيَادَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ كَعَمَادٍ مَغْنِيَّةٍ، مِصْطَفَى بَدْرِ الدِّينِ، دَاوُدَ دَاوُدَ وَغَيْرِهِمْ فِي حِينِ تَحْطَى الشَّخْصِيَّاتِ السِّيَاسِيَّةُ بَعْدَ أَقْلٍ مِنَ الصُّورِ الَّتِي تَزِيدُ فِي فَتْرَاتِ اسْتِحْقَاقَاتِ الثِّيَابِيَّةِ. وَبَعْدَ مَقْتَلِ الْقِيَادَتَيْنِ، الْإِيرَانِي قَاسِمِ سَلِيمَانِي وَالْعِرَاقِي أَبُو مَهْدِي الْمَهْدِي الْمَهْدِي ٢٠٢٠، بَدَأَتْ تُعْلَقُ صُورُ لَهْمَا، وَلِسَلِيمَانِي بِدَرَجَةٍ أَكْبَرَ، حَتَّى أَنَّهُ مِنْ قَلْبَةٍ، إِنْ لَمْ يَكُنِ الْوَحِيدَ، الَّذِي حَظِيَ بِإِقَامَةِ تَمَثَالٍ نَصْفِيٍّ لَهُ فِي مَحِيطِ مَنطِقَةِ طَرِيقِ الْمَطَارِ. إِضَافَةً إِلَى صُورِ الْقِيَادَاتِ، ثَمَّةُ صُورُ «الشُّهَدَاءِ» الْمَوْجُودَةُ بِكَمِيَّةٍ كَبِيرَةٍ لِأَنَّهَا تَمْتَدُّ مِنْ فِتْرَةِ الْحَرْبِ الْأَهْلِيَّةِ مَرُورًا بِالْمَعَارِكِ ضَدَّ «إِسْرَائِيلِ» وَصُورًا إِلَى قَتْلَى حِزْبِ اللَّهِ فِي سُورِيَا.

عَلَى مَسْتَوَى الشُّعَارَاتِ الْآخَرَى: ثَمَّةُ رَايَاتٌ تَحْمَلُ طَابِعًا دِينِيًّا، أَوْ مَا يُعْرَفُ بِ«الرَّايَاتِ الْحَسِينِيَّةِ». وَأَعْلَامُ حِزْبِ اللَّهِ، حَرَكَةُ أَمَلِ، إِيرَانِ، سُورِيَا فِي عَهْدِ النُّظَامِ السَّابِقِ، فِلَسْطِينِ بَيْنَمَا قَلِيلًا مَا نَرَى أَعْلَامًا لِلْيَمَنِ وَالْعِرَاقِ. إِضَافَةً إِلَى يَافِطَاتٍ تَحْمَلُ صُورَ الْقِيَادَاتِ مَعَ كِتَابَاتٍ تَحْتِهَا مِثْلُ «حَسِينِ الْعَصْرِ»، «بَا وَيَلِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ»، «دَامَ رَعْبُكُمْ»؛ أَوْ تَحْمَلُ اقْتِبَاسَاتٍ لِهَذِهِ الْقِيَادَاتِ، مِثْلُ: «إِسْرَائِيلِ

(١) راجع: The Power of Images in Global Politics, Roland Bleiker, Mar. 2018, E-international relations website.

(٢) القرية تُطلق على المكان المخصص لشأن محدد؛ كالقرية السياحية، القرية الزراعية...



يافاطة في الضاحية بمناسبة عيد التحرير، الجزيرة



صورة متخيلة لاجتماع سليمان ونصر الله ومغنية، نون بوست

يُشبه الاحتلال». من هنا، إن وجود الرُموذج على الأمل العام هو في ذاته رمز يدل على عدم استقرار مفهوم الدولة لدى هذه الجماعة أو تلك.

طبعاً، إن الحديث هنا عن تعليق الرُموذج دون تراخيص من الجهات الحكومية المعنية، وهو الحالة العامة في «الضاحية». وليس إجحافاً إذا قيل أن الفرد الصّاحوي سيري في طلب الترخيص نوعاً من الإهانة لحزبه وزعيمه. فالنّزعة التقديسية للزعيم، الذي يختزل الحزب وحتّى الطائفة بشخصه، تجعل من هذا الزعيم شيئاً أسمى وأعلى من الدولة، إضافة إلى كونه أقوى منها بحكم واقع الأمر. فنرى على سبيل المثال، صورة لزعيم يكتب تحتها: «صمّام أمان الوطن» أو «إمام الوطن»، ولا يخفى أن التعاطي مع الزعماء لا يكون من موقعهم الرسمي بقدر ما يكون من موقعهم الحزبي. فجمهور حركة أمل، مثلاً، يتعاطى مع نبيه برّي من موقع رئاسة الحركة أكثر من موقع رئاسة مجلس النواب. تطرح هذه الشّعارات أسئلةً بنيويةً أهمها: ما هي حدود هذا «الوطن»؟ وكيف يستقيم أن يكون زعيم ما هو «حامي» الوطن وصمّام أمانه في حين أن الدولة، بمؤسساتها، هي المعنية بهذا الأمر؟

الرُعيم في رمزيته: السُلطة الأبوية والمرجعية البديلة

للرُموذج السياسي مجموعة من الوظائف التي تتجاوز وظائف الإعلان والإعلام على حد سواء. ولا بُد، كي نفهم هذه الوظائف، أن نعرّض إلى الجانب النفسي الذي يدفع الفرد إلى الانتماء إلى حزب أو جماعة ما. يقول الدكتور فرج أن المسألة ترتبط بسيكولوجيا العائلة؛ فالأب هو رمز السُلطة بالنسبة للطفل. لكن في فترة المراهقة ينشأ نوع من الصراع بين المراهق والأب من أجل الاستقلال، فالمراهق يريد أن ينتصر ويقبض الأب، ويقوم بذلك عبر استبدال الأب بشخصية بديلة تُصبح هي المرجعية، بحسب تعبير فرج الذي يضيف أن المرجعية البديلة تُعبر عن ثقافة الفرد وبنائه النفسي وعلاقته بأبيه. فاختيار الزعيم الحي كمرجعية بديلة يدل على مستوى ثقافي أدنى من مستوى الذي يختار شخصية تاريخية وكلاهما أدنى من الذي يختار منظومة فكرية كمرجعية بديلة. من هنا، يخلص فرج إلى اعتبار أن عدم وجود «الزعيم» بهذا المعنى الأبوي يدل على أن «المجتمع ارتقى من مستوى الذكاء المحسوس إلى الذكاء المُجرّد». من هنا، نرى أن استعمال عبارات مثل: «بي الكل»، «إبن الحركة/الحزب»، أو عبارات تحمل معنى اليتم كالتي انتشرت بعد اغتيال الأمين العام لحزب الله حسن نصر الله، وانتشرت بشكل خاصّ عشية تشييعه في ٢٣ شباط الماضي؛ مثل «نحن أيتام الأمين» في لطمية «ضاحية» للمُشد حسن حرب، أو في مرثية «وداعاً أبانا». فهذه المُصطلحات لها أبعاد نفسية ناتجة عن اتخاذهم من شخص نصر الله مرجعية بديلة عن سُلطة الأب.

يُضيف فرج أن الفرد في تعامله مع الزعيم، أو الحزب، الذي يكون ذا بطش وقوة، مادية أو معنوية، يعتمد آلياً من ثلاث آليات؛ الأولى هي التمرد إذا كان الفرد مُتمرداً ضد أبيه؛ الثانية تُعرف بالآلية التماهي مع المعتدي، بحيث يتماهى الفرد مع الزعيم الباطش ليقتي شره من جهة وليأخذ قوته من جهة ثانية؛ أما الآلية الثالثة هي التسليم، فلا هو يتمرد ولا هو يتماهى. وكل هذه الآليات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بسيكولوجيا العائلة.

الرُموذج في وظائفها: تثبيت مركزية «المركز»

تؤدي الرُموذج وظيفة مهمة على مستوى العلاقات بين أفراد الجماعة، إذ أن أهمية هذه الرُموذج تكمن في المعنى الذي توصله للمتلقين. الوظيفة الأولى، ولعلها الأكثر أهمية، يشرّحها الدكتور فرج بقوله: «إن علاقة البيئة بعضها ببعض تتم عبر هذه الرُموذج، وقد تحدت الدكتور مصطفى حجازي في كتابه «التخلف الاجتماعي: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور» عن العلاقات التبادلية بين أفراد الجماعة عبر شخصية القائد التي تربط الجماعة ببعضها». ويُشبه فرج الأمر بمجتمع التمل:

(٩) راجع «شعبة لبنان والأغنية السياسية»، الفان رقم ٤، العدد ١٦.

(١٠) راجع «أطفال حزب الله»، الفان رقم ٤، العدد ١٠.

(١١) راجع «ثقافة السحسوح»، الفان رقم ٤، العدد ١٢.

أكبر وأعمق على الأطفال الذي يُشاهدون الرُموذج في كل مكان: البيت، المدرسة، المسجد، الكشافة، الشوارع. وهذا يجعل الطفل في احتكاك لا ينقطع تقريباً مع الرُموذج التي يتعاطى معها من مُنطلقات الصورة النمطية الموجودة في ذهنه^(٩).

والرُموذج بالنسبة لمن ينمو تحت ظلها هي النمو الطبيعي، بحسب ما يرى فرج الذي يضيف أن الحدود التي ترسمها الرُموذج «هي الحياة، وكل ما هو خارجها فهو خارج الحياة. فالفرد ينمو في بيئة واسعة وفيها مغريات تُشبع لحيته حاجات غريزية مُتعددة، لذلك هو يجد حياته ومستقبله في هذه الحدود. الضاحية هي العالم بالنسبة له وحدودها هي حدود العالم. وكلما كبر هذا الفرد فإنه يجد الصورة تكبر وتوسع امتدادها، وهذا ما ولد لديهم شعوراً بالعظمة وبأنهم لا يُفهمون، لأنهم يظنون أن بيتهم هي حدود العالم، وبالتالي قوانين هذه البيئة هي قوانين العالم. وهم صادقون وحقيقيون مع أنفسهم؛ لا خيارات أمامهم، هذا الموجود! والتعاطي مع العالم خارج حدود بيتهم يتم عبر التخيل، أي من خلال الصورة المُخيّلة لهذا الخارج. وقد رأينا هذا في الحرب الأخيرة، إذ تبين أنهم لا يعرفون «إسرائيل» الحقيقية، وإنما يعرفون صورةً مُخيّلة عنها. هذه الصورة هي نتاج ما تعكسه هذه الرُموذج من جهة، ونتاج علاقة البيئة بالشبيعة المُعارضين للشثائي الشيعي الذين يتم قمعهم بـ «السحسوح» الذي صار ثقافة في هذه البيئة^(١٠).



إزالة صورتين لموسى الصدر وحسن نصر الله في بيروت، الشرق الأوسط

نزاع الرُموذج: عود إلى الدولة أم استكمال للحرب؟

مما لا شك فيه أن قرار إزالة الرُموذج الحزبية الموجودة على الأماكن العامة دون ترخيص هو مظهر طبيعي من مظاهر وجود الدولة. إلا أن إزالة رُموذج دون أخرى، أو منطقة دون أخرى، سيدفع إلى تنمية شعور بالاستهداف المباشر لهذه الفئة أو تلك المنطقة. فإذا أخذنا بعين الاعتبار أن جمهور حزب الله، وحركة أمل بدرجة ثانية، يرتبطون بهذه الرُموذج بالطريقة التي شُرحت أعلاه؛ وإذا كان التصويب على إزالة رُموذج حزب الله وأمل دون غيرهما، فإن ردّة الفعل الطبيعية لجمهورهما أن يعتبروا ذلك نتيجة للضربة الكبيرة التي تعرضوا لها في هذه الحرب، وبالتالي استكمالاً لها! ■

فكما أن التمل يتواصل مع بعضه عبر الملكة، يقوم أفراد الجماعة بالتواصل بين بعضهم عبر شخصية القائد العظامية التي تُعبر عنها الرُموذج. ومما يؤكد هذا الأمر أن صور القيادات هي الأكثر انتشاراً في الضاحية إذا قورنت بغيرها من الرُموذج، كالأعلام مثلاً. ويُضيف فرج أن الأمر يتم بشكل لاواع، حيث يعمد الفرد إلى «إظهار الانتماء من أجل تحصيل المقبولية لدى الجماعة، مما يؤدي إلى تقوية العلاقات الاجتماعية بين هؤلاء الأفراد». بالتالي، إن عبارة «تقدمة فلان»، أو حتّى «تقدمة آل فلان»، التي نجدتها مكتوبة تحت الصور والشعارات المُعلّقة تأتي في سياق إشهار الانتماء الذي يؤدي، بحسب فرج، إلى إشباع حاجات غريزية كالأمان؛ فأنا أنتمي إلى هذه الجماعة يعني أنني آمن أمام الجماعات الأخرى، وإشباع هذه الحاجات يُقيه «مطواعاً بيد الجماعة» ومنظوماتها الاجتماعية والفكرية.

أما الوظيفة الثانية للرُموذج فهي تحديد الخطاب اليومي أو السردية اليومية لهذه «البيئة». فالرُموذج تُفهم الناس أن التوصل بعضهم مع بعض من جهة، ومع «الأخر» من جهة أخرى، يكون بالمنطق الذي تُعبر عنه الرُموذج. وهذا ما يؤكد فرج ويربط بينه وبين «الهيمنة في فرض الأمر الواقع. حين يتحدث الجميع لغة واحدة، فإن الفرد يخاف من الحديث بلغة مُختلفة، إذ يكون بذلك خارجاً عن الجماعة التي ستقوم بدورها بمواجهته. ومواجهة البيئة للخارجين عنها لا تحتاج، بالضرورة، لقرار حزبي. هي وحدها قد تُبادر لذلك، لأن المسألة بالنسبة للأفراد تُعتبر مسألة شخصية. المنظومة الاجتماعية التي تغدّى على بعضها عبر الرُموذج، التي تُعبر عن المرجعية البديلة التي اختارها الأفراد، تُنتج حالة مُتماسكة»، إذ أن انهيار المنظومة التي تُشبع حاجات الفرد الغريزية يعني انهيار الفرد نفسه، لذلك هو يتمسك بها لتحميه شخصياً.

كما أن للرُموذج دور في عملية التوصل بين أفراد هذه البيئة، وبينهم وبين قيادتهم. فالرُموذج يحمل كل الدلالات للداخل والخارج، وجمهور حزب الله كان، بحسب فرج، «يعرف جيداً إذا كان نصر الله يتحدث عنهم أو عن غيرهم. وهم يستعملون في مجالسهم رموزاً خاصة بهم؛ لغة خاصة، علاقتهم التبادلية تقوم على رموز خاصة بهم. من هنا، هم يستطيعون أن يفهموا بعضهم حتّى لو كانوا لا يعرفون بعضهم مُسبقاً».

الأمر الآخر الذي يُعد رمزاً في ذاته هو الكلمات التي تُكتب على صور القيادات. فنجد عبارات مثل: «دام رُعبكم»، «يا ويلنا من بعدك»، «يا ويلكم إذا نفذ صبره»، «سنخوض البحر معك» وغيرها من عبارات القوة والجبروت التي يحمل بعضها خلفيّة دينية. فعبارة «سنخوض البحر معك» هي إسقاط لقصة موسى وبني إسرائيل مع فرعون. والجدير بالذكر أن هذه العبارات ليست وليدة مخيلة البيئة وحسب، بل هي من إلهامات الأغاني السياسية لحزب الله وحركة أمل^(١١). وغالباً ما تُوضع هذه العبارات مع صور تحمل تقاسيم وجه الزعيم فيها معاني الهيبة والقوة؛ كتقطيب الحاجيين مثلاً، أو رفع الإصبع التي اشتُهر بها نصر الله وغير ذلك من الصور.

تعكس هذه العبارات حالة نفسية يشرّحها الدكتور فرج بأن «الأب القاسي على أبنائه يخلق لديهم شعوراً بالحماية. فهو قاس أي أنه قوي، وبالتالي فهو يستطيع حمايتي. فاختبار القوة يتم من خلال تأكيد السطوة»، وبالتالي إن هذا التأكيد على معاني السطوة والقوة يهدف إلى التأكيد على قوة الجماعة التي تختزل بشخص الزعيم. فعبارة كـ «يا ويلنا من بعدك» تُعبر تعبيراً صادفًا عن حالة الفرد، وحتّى الجماعة، بعد غياب هذا الزعيم، وتُعبّر تحديداً عن الخوف من فقدان الزعيم الذي اختزل الجماعة بحزبه واختزل حزبه بشخصه، والأخطر أنه اختزل شخصه بحالة واحدة هي حالة القوة التي لا تُفهم من هنا، تُعد الرُموذج الخطوة الأخيرة والضرورية في أن معاً لتثبيت الصورة النمطية للجماعة، ويكون تأثير هذه الرُموذج